خطبة صلاة الجمعة 26/4/2013 للشيخ الطبيب محمَّد خير الشعّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(اسم الله تعالى الوكيل)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنَّ سيّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيه وخليله، خيرُ نبي اجتباه، هدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدِّين كلِّه ولو كره الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيّدنا محمَّد وعلى أله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد:

عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير:

قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:23].

وقال سبحانه: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم:11].

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:3].

وقال عن أوليائه: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة:4].

وقال لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك:29]، وقال له: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل:79]، وقال له: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء:81]، وقال له: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ [الفرقان:58]، وقال له: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران:159].

وقال عن أنبيائه ورسله عليهم الصَّلاة والسَّلام: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم:12].

وقال عن أصحاب نبيه صلى الله عليه وسلَّم: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: 173]، وقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:2].

أيها الإخوة:

عنوان خطبة اليوم:

(اسم الله تعالى الوكيل)

الوَكِيلُ: اسمٌ من أسماء الله تعالى الحُسنى، وَرَدَ في حديث الإمام الترمذي، حين عدَّد الأسماء الجليلة الجميلة التِّسعة والتِّسعين، ووَرَدَ عشرات المرَّات في القرآن الكريم، وفي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلَّم.

الوَكِيل في اللُّغة: القَيِّم الكَفِيل، الَّذي تكفَّل بأرْزَاق العِبَاد وتدبير شؤونهم، يقال: تَوَكَّلَ بالأَمْر إذا ضَمِنَ القِيام به، ووَكَلْتُ أمْرِي إلى فلانٍ، أي: ألْجَأته إليه واعْتَمدت فِيه عَليه، إمَّا ثقةً بِكفايَتِه أو عَجزاً عن القيام بأمر نفسي.

ووَكِيْلُكَ في كذا إذا سلَّمته الأمر وتركته له، وفوضته إليه واكتفيت به، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:3].

والوَكِيل سبحانه هو الذي توكَّل بالعالمين خَلْقاً وتدبيراً، وهدايةً وتقديراً، فهو المتوَكِّل بخلقه إيجاداً وإمداداً، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام:102]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر:62].

اجتمع على أَذِيَّة المسلمين يوم الأحزاب مِن الْخَلْقِ ما اجتمع، والأحزاب وما أدراك ما الأحزاب ومَن الأحزاب.!

نزلت سورةٌ في القرآن سمّيت بسورة الأحزاب تشرح الشِّدَّة التي تعرَّض لها المؤمنون: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب:10-11].

لفتني في هذه السُّورة أنَّها أكَّدت على اسم الله تعالى (الوكيل) ففي مطلعها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب:1-3].

وفي الآية السَّابعة والأربعين منها: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا * وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب:47-48].

وبماذا عادت الأحزاب؟ وبماذا عاد من توَكَّل على الله، مُسَلِّمَاً قياده إليه، مطمئناً لحكمه، ملتزماً بأوامره؟!.

قال العلماء: الوَكِيْل ينقسم إلى من يُوكَل إليه بعضُ الأمور، وإلى مَن يُوكَل إليه كلُّ الأمور.

وينقسم إلى: مَن يستحق أن يكون موكولا إليه، ومن لا يستحق.

وينقسم إلى: مَن يفي بما وُكِل إليه وفاءً تامَّاً من غير قصورٍ، وإلى مَن لا يفي.

وقالوا: الوَكِيْل المطلق الذي يستحق أن توكله في أمورك كُلِّها، وهو وَفِيٌّ بالقيام بها وبإتمامها، وهو الله تعالى وحده.

وفي صحيح البخاري: عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: (﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:173]).

وفي الصَّحيحين: أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: «**اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ: أَنْ تُضِلَّنِي أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ، وَالْجِنُّ وَالإِنْسُ يَمُوتُونَ**».

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِهِ فَقَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ، يُقَالُ حِينَئِذٍ: هُدِيتَ، وَكُفِيتَ، وَوُقِيتَ. فَتَتَنَحَّى لَهُ الشَّيَاطِينُ، فَيَقُولُ لَهُ شَيْطَانٌ آخَرُ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ؟».

[رواه أبو داود والترمذي].

قال ابن قيّم الجوزية في كتابه النفيس (مدارج السَّالكين): (قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلَّم: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل:79]، وفي ذِكْرِ أمره بالتَّوَكُّل مع إخباره بأنَّه على الحقِّ، دِلَالَةٌ على أنَّ الدِّين بمجموعه في هذين الأمرين:

– أنْ يكون العبد على الحقِّ في قوله وعمله واعتقاده ونيته.

– وأن يكون متوَكِّلاً على الله، واثقاً به.

فالدِّين كُلُّه في هذين المقامين.

وقال رُسُلُ الله وأنبياؤه عليهم السَّلام: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾

[إبراهيم:12].

فالعبد آفته: إمَّا من عدم الهداية، وإمَّا من عدم التَّوَكُّل، فإذا جمع التَّوَكُّل إلى الهداية، فقد جمع الإيمان كُلَّه).

ونحن في هذه الأزمة، تعالَوا نجمع إلى التزامنا بالحقِّ في أقوالنا وأفعالنا ونوايانا ثقتَنا بالله، وتوَكُّلَنا عليه، لنسعد بذلك في الدَّارين.

وتعالَوا نضم إلى سَيْرِنا على طريق الله بفعل المأمورات وترك المنهيات، سيرَ قلوبنّا نحو الوَكِيل، واعتمادنا في أمورنا كلِّها على الجليل، فنسلم في الدَّارين، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾

[إبراهيم:12].

أيها الإخوة:

لم يختلف عالمان على أنَّ التَّوَكُّل عمل القلب، فالعبد آخذٌ بأسباب السَّلامة والسَّعادة بجوارحه، منخلعٌ عن الحول والقوَّة بجنانه، «اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ» [رواه أبو داود].

يَحتاط لنجاته من المهالك بما استطاع، ويفزع إلى الوكيل بقلبه مطمئناً إليه، وراغباً بما لديه، واثقاً به، قاطعاً الالتفات إلى غيره.

وتوَكُّلك على الله وثقتك به على ثلاث درجات – فانظر في أي الدرجات أنت–:

أدناها: ثقةٌ كثقة الخصم بوَكِيْلِه في الخصومة.

وثانيها: ثقةٌ كثقة الطِّفل بأمِّه وفزعه إليها وتعلقه بها.

وأعلاها: ثقةٌ يكون العبد فيها بين يدي الله كالميت بين يدي غاسله، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران:159].

وقد جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلَّم: «**دَعَوَاتُ الْمَكْرُوبِ: اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو، فَلاَ تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ**». [رواه أبو داود].

وكان من دعائه صلى الله عليه وسلَّم: «**أَشْهَدُ أَنَّكَ إِنْ تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي تَكِلْنِي إِلَى ضَيْعَةٍ وَعَوْرَةٍ وَذَنْبٍ وَخَطِيئَةٍ، وَإِنِّي لَا أَثِقُ إِلَّا بِرَحْمَتِكَ**». [رواه أحمد والطبراني والبيهقي].

كان سيِّدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: (ما أُبالي على أيِّ حالٍ أصبحتُ، على ما أُحِبُّ أو على ما أَكْره، لأنِّي لا أَدري الخير فيما أُحِبُّ أو فيما أَكْره).

أيها الإخوة:

اعتمد قارون يوماً على ماله فخسف الله به وبداره الأرض.

واعتمد أبرهةُ يوماً على جاهه وجنده فجعل الله كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم طيراً أبابيل.

واعتمد قومٌ يوماً على عِلمِهم، فصنعوا التشالنجر المتحدي، فصُعِقوا في الثَّواني الأولى، وصنعوا التايتنيك –السَّفينة التي لا تغرق– فغرقت في الرِّحلة الأولى.

واعتمد رجلٌ يوماً على قوَّته، وظنَّ نفسه الإنسان الكامل السوبرمان، فوقع أسير المرض حبيس العِلَل، وقد رأيت فيلماً مصوَّراً عن الممثل الأميركي، الذي كان يمثل دور السوبرمان، وهو رجلٌ رياضي ذو لياقةٍ عاليةٍ اسمه كريستوفر، سقط عن فرسه في أثناء التَّدريب سقطةً قويةً، رضَّت النّخاع الشّوكي، وأُصيب السوبرمان بشللٍ رباعيٍّ مع عُسر نطقٍ وتنفسٍ.

ولذلك قالوا: من اتَّكَل على ماله قَلَّ، ومن اتَّكَل على جاهه ذَلَّ، ومن اتَّكَل على عِلمه ضَلَّ، ومن اتَّكَل على الله فلا قَلَّ ولا ذَلَّ ولا ضَلَّ.

أيها الإخوة:

الوَكِيْل: هو الَّذي يُثني جميلاً، ويُعطي جزيلاً لمن رضي به وكيلاً.

والوَكِيْل: هو الَّذي ابتدأك بكفايته، ووالاك بحُسْن رعايته.

والوَكِيْل: هو الَّذي توَكَّل بالقيام بجميع ما خَلَقَ، وتكَفَّل بالعناية بجميع من رَزَق.

والوكيل: هو الَّذي كَفِلَك في بطن أُمِّك جنيناً، وأبرزك للوجود وليداً، وتحبب إليك في السَّرَّاء، ويكون معك في الضَّراء وفي البلاء.

كان خاتم الإمام مالك بن أنس رحمه منقوشاً عليه: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:173]، فسألوه عن سبب اختياره لهذه الآية، فأجابهم: لأنَّ بعدها قوله تعالى: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران:174].

وكانت آخر كلمة نطق بها سيِّدنا صلاح الدين الأيوبي رحمه الله، وهو على سرير الموت، قوله تعالى: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [التوبة:129]، ثمَّ ابتسم ومات.

فيا أيها الإخوة:

تعالوا نفزع إلى الوَكِيْل في هذه الشِّدَّة، نُسَلِّم له القياد، ونثق به، ولأوامره ننقاد، جوارحنا بالأخذ بالأسباب موصولةٌ، وجوانحنا بالثِّقة به معمورةٌ، خصوصاً وقد أرسل لنا رسالته: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر:36]، وأغرانا بسعة رحمته: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:156]، وأطمعنا بمزيد فضله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى:5].

والحمد لله رب العالمين